الاتجاه الفلسفي في أشعار ابن حزم الظاهري

م.منير عبيد نجم

التمهيد
نظرة في حياة الشاعر

اسمه ومولده:-

أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب بن اميه بن عبد شمس الاموي (١) وجدّه يزيد اول من اسلم من اجداده، واصله من فارس (٢)وجدّه خلف أول من دخل الاندلس من آبائه(٣) ولد بقرطبة من بلاد الاندلس سنة أربع وثمانين وثلثمائه في الجانب الشرقي منها (٤)٠

نشأته:-

نشأ ابن حزم الظاهري في كنف والده احمد بن سعيد الذي كان أديباً بارزاً وعالماً صالحاً وإدارياً حازماً و كان ذا مهاره عظيمة بالاوساط السياسية كسب ثقة الحكام وارتقى في مناصبه حتى صار وزيراً لدى المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر(٥)وهكذا فقد قضى شاعرنا طفولة مترفة اتيحت له فيها فرص التعلم على ايدي العلماء واللقاء بضروب الادباء والفقهاء فأفاد من ذلك علوما جمة وتفتحت مواهبه وقدراته(٦)٠

عاصر ابن حزم الفتنة التي اضطربت بها الاندلس ولان أباه كان وزيراً للمنصورا بن أبي عامر الحاجب (رئيس الوزراء)الذي كان قد حجر على الخليفة هشام المؤيد واستبد بالحكم دونه،فلما توفي المنصور (٣٩٢هـ-١٠٠٢م) استطاع هشام المؤيد أن يحكم بنفسه وتتبع رجال دولة المنصور فلحق آل حزم من ذلك نصيب وافر تشتتوا به في البلاد ٠ثم زال الحكم المرواني عن الاندلس وبويع علي بن حمود بالخلافة وتغلب على قرطبة فاتهم آل حزم بأنهم من أنصار المروانيين (٧)،ولقد أضاع آل حزم في أثناء ذلك كثيراً من أموالهم وقصورهم وكتبهم (٨)٠

وبعد خراب قرطبة في فتنة البربر انتقل ابن حزم إلى شاطبة وفيها ابتدأ تأليف كتابه (طوق الحمامة)(٩)٠وكان في سنة ٤١٨هـ(١٠٢٧م)يعيش فيها ،وفي سنة ٤٤٠هـ(١٠٤٨م)كان موجوداً في جزيرة ميورقة لاجئاً فيها(١٠)٠

ثم صار وزيراً للمستظهر الاموي ولكن وزارته لم تطل فترك شؤون السياسة والتفت الى العلم والفقه والآداب (١١)٠

ثقافته:-

كان ابن حزم الظاهري ذكياً سريع الحفظ واسع الاطلاع متفانياً في طلب العلم ونشره حافظاً لعلوم شتى (١٢)،تعددت ثقافته تبعاً لتنوع روافدها ما بين علوم دينية وفلسفية وادبية فقد كان عقله متفتحاً لتقبل كل المعارف التي كان الميدان الاندلسي يزخر بها(١٣) كما افادته حافظته في أن ينفذ بأدنى جهد الى مناط المسائل وجوهر الامور ليملك زمامها ويدرك مقاصدها ولعل الفضل في ذلك يرجع لوالده إذ رباه تربية خاصة فقد كان يشرف على تعليمه بنفسه ويقص عليه بعض الاحداث التي شهدها في وزارته للمنصور بن عامر في ما يسهم في بناء ثقافته العلمية والادبية ويصطحبه معه في مجالس الادباء والمفكرين(١٤) وهكذا حصل على الثقافة الواسعة على ما يمكن أن يحصل عليه يومئذ طلابها الافذاذ لذا كان موسوعة علمية في مختلف المجالات حتى عدَّ من اشهر علماء الاندلس في زمانه(١٥)٠

مذهبه:-

كان ابن حزم الظاهري صوتاً يغاير ما كان عليه جمهور فقهاء الاندلس فقد كان المذهب السائد هو مذهب مالك ولكن ابن حزم الظاهري تمذهب في اول حياته بمذهب الشافعي ثم مال الى المذهب الظاهري (١٦) ويعلل العلماء ذلك بأنه كان فقيها متحرراً يقول ما يعتقد ويعبّر عما يحس، كره من فقهاء عصره تناقضهم وكثرة تأويلهم ثم ما تورط فيه كثير منهم من ارتكابهم لسيء الاخلاق وقبيح الفعال كل ذلك دفعه الى اللاخذ بظواهر النصوص لانها شيء لا يمكن التلاعب به ولا التأويل(١٧)فيه يقول(١٨)

فقلت:هل عيبهم لي غير إنَي لا ... أقول بالرأي إذ في رأيهم فتنُ
وأنَني مُولَعُ بالنصَ لستُ إلى ... سواه أنحو ولا في نصرهِ أهنُ
لاأنثني نحو آراء يقالُ بها ... في الدين،بل حسبي القرآن والسننُ
يابرد ذا القول في قلبي وفي كبدي ... ويا سروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صُمَ الحصى كمداً ... من مات من قوله عندي له كفنُ
إني لاعجبُ من شأني وشأنهمُ ... واحسرتا انني بالناس ممتحنُ

يتضح لنا من هذه الابيات ما عاناه ابن حزم الظاهري ازاء توجهه نحو الظاهر والتمسك القوي برأيه يقول في كتابه الملل والنحل"بل الآيات كُلَها حق على ظاهرها لايحلَ صرفها عنه"(١٩) وانما نتبع ما جاءت به النصوص(٢٠)والنص لايحل خلافه لان الله تعالى ينص احيانا نصاً لايحتمل تأويلاً(٢١) وكذلك الاحاديث الموثوقة وصرف الايات والاحاديث عن ظاهرها لايجوز الا ببرهان (٢٢)او بنص من قرآنٍ او حديثٍ اواجماع مُتَيقَنٍ او بضرورةٍ من حسي وعندئذٍ تجب مخالفة الظاهر والعمل بالتأويل على مقتضى البلاغة العربية (٢٣)وهذا ما أغضب عليه الناس ولا سيما الفقهاء وهذا الثبات على الموقف والتشبث به بكل قوة جعل له حساداً ومعارضين حتى من أقرب الناس اليه فقد ناصبه العداء ابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزام ،وكان حرياً به أن يقف إلى جانبه في محنته ،ولكنه آثر أن يعين الزمان عليه بدلاً من ان يعينه على الزمان (٢٤)وهكذا يبدو لنا ابن حزم الظاهري كمن كان يخوض حرب جدال وخصال مع معاصريه ٠ولاشك أن هذا الحال قد حزَّ في نفسه وأورثه كثيراً من المرارة ،ولذا راح يقول بحسرة وأسى (٢٥)

إني لاعجب من شأني وشأنهم ... واحسرتا إنني بالناس ممتحن
ما إن قصدت لأمر قط أطلبه ... إلا وطارت به الأظعان والسفن
أما لهم شغل عني فيشغلهم ... أو كلهم بي مشغول ومرتهن

كأن ذكري تسبيح به أمروا فليس يغفل عني منهم لسن

وكان طبيعياً ان يتصدى الفقهاء بحزم لابن حزم ،فلقد ضاقوا به وسخطوا عليه ولم يحتملوا تكفيره لبعضهم فعمدوا إلى استعداء الحكام عليه واستصرخوا علماء الأمصار ضده ،واستطاعوا أن يثيروا حفيظة المعتضد بن عباد نحوه ،فلم يتورع عن احراق مصنفاته على ملأ من أهل اشبيلية مسايرة للعامة وإرضاء للفقهاء ولابد من ان تكون هذه الحادثة قد تركت وقعاً سيئاً في نفس ابن حزم فما كانت كتب العالِم إلا بضعة من نفسه فكان مما قاله في هذه المحنة(٢٦)

فان يحرقوا القرطاس لايحرقوا الذي
تضمّنه القرطاس ،بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل إن أنزل ويدفن في قبري

دعوني من إحراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

آثاره:-

كتب ابن حزم كثيرة ومتنوعة غير ان كثيرا منها ضاع في النكبات التي اصابت قرطبة(٢٧)فقد كان ابن حزم الظاهري فقيها متكلما وعالماً لغوياً ومؤرخاً بارعاً واديباً بليغاً ومفكراً رصيناً قال ابن بشكوال في حقه : "كان ابو محمد اجمع اهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام واوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والاخبار" (٢٨)اخبر ولده ابو رافع انه اجتمع عنده بخط ابيه من تأليفه نحو اربعمائة مجلد،تشتمل على قريب من ثمانين الف ورقة(٢٩)فمن كتبه(٣٠)

الاحكام لاصول الاحكام،اسواق العرب رساله في الامامة (الخلافة)رسالة في أمهات المؤمنين-التحقيق في نقد مذهب محمد بن زكريا الرازي –التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العالمية والأمثلة الفقهية-جمهرة الأمثال-جمهرة أنساب العرب-حجة الوداع-الرد على ابن النغريلة اليهودي-رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل – طوق الحمامة في الألفة والألاف (يتناول أحوال العشاق وما يعتريهم من الحب والإذعان والسلو والطاعة والهجر وما تقتضيه حياتهم من السفر والمراسلة وما ينغص حياتهم كالواشي والرقيب وما يبهجهم كالوصل)- رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور ؟-الفصل في الملل والأهواء والنحل (عرض فيه للأديان القديمة ومذهب قدماء الفلاسفة وآراء خصومه ،وفلسفة ابن حزم كلها منطوية في هذا الكتاب)- رسالة في فضل الاندلس-المُحلَى(في فروع الفقه)- مراتب الاجتماع- مراتب العلوم- المفاضلة بين الصحابة-فصل في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها- معرفة الناسخ والمنسوخ- النُبذة الكافية في أصول أحكام الدين – نقط العروس في تواريخ الخلفاء.

وفاته:-

كان ابن حزم الظاهري كثير الوقيعة في العلماء بلسانه وقلمه حتى قال فيه ابو العباس بن العريف كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين لكثرة وقوعه بالائمة (٣١)فاورثه ذلك حقداً في قلوب اهل زمانه وما زالوا به يبغضوه الى ملوكهم حتى طرده عن بلادهم ومن ثم" كانت وفاته في قرية له في شهر شعبان سنه ست وخمسين واربعمائة من الهجرة وله اثنتين وسبعين سنة"(٣٢)ودفن في قريته(منتلجتم)التي هي ملكه وملك آبائه من قبله(٣٣)

هوامش التمهيد :

١- **ينظر المغرب ٣٥٤/١،الذخيرة م١٤٠/١/١، جذوة المقتبس٢٩٠،نفح الطيب:٣٦٤ .**

٢- **ينظر وفيات الأعيان:**٣٢٥/٣

٣- **ينظر المصدر نفسه:٤٤٩/٣**

٤- **ينظر موسوعة شعراء الاندلس:١١٤**

٥- **ينظر مختارات من الشعر الاندلسي:٦٤**

٦- **ينظر ابن حزم الاندلسي،حياته وادبه:١٨**

٧- **المصدر نفسه:١٨-١٩**

٨- **ينظر ابن حزم الاندلسي صورة اندلسية :٢٣**

٩- **ينظر المصدر نفسه:٢٣**

١٠- **ينظر موسوعة شعراء الاندلس**
١١- **ينظر المصدر نفسه:١١٣**

١٢- ينظر ابن حزم الاندلسي – حياته وادبه: ٢٠
١٣- ينظر الجذوة: ٢٩١
١٤- ينظر الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة: ٣٩٥
١٥- ينظر المصدر نفسه: ٣٩٦
١٦- ينظر مختارات من الشعر الاندلسي: ٦٤
١٧- ينظر ملامح الشعر الاندلسي: ١١٧
١٨- المورد: ٩٩/٥
١٩- الفصل في الملل والاهواء والنحل: ابن حزم الاندلسي: ١٥٢/٣
٢٠- المصدر نفسه: ١٦٢/٣
٢١- المصدر نفسه: ١٤٤/٣
٢٢- المصدر نفسه: ٢٠٧/٣
٢٣- المصدر نفسه: ٢٠٩/٣
٢٤- ينظر ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابه: ١٣٦
٢٥- المورد: ٩٩/٥
٢٦- المصدر نفسه: ١٠٦/٥
٢٧- ينظر تاريخ الادب العربي: ٥٣٥/٤
٢٨- الصلة في تاريخ أئمة الاندلس: ٣٩٥
٢٩- ينظر الجذوة: ٢٩١
٣٠- ينظر تاريخ الادب العربي: ٥٣٥/٤-٥٣٦
٣١- ينظر وفيات الاعيان: ٣٢٨/٣
٣٢-موسوعة شعراء الاندلس: ١١٤
٣٣- ينظر ابن حزم ورسالته المفاضلة بين الصحابة: ١٤٩

الاتجاه الفلسفي في أشعار ابن حزم الظاهري

توطئة:-

لم يجد الاتجاه الفلسفي أرضاً خصبة في الاندلس، بل يُعدُّ من النشاطات الفكرية المحرّمة او شبه المحرّمة او من النشاطات البعيدة عن اهتمام الاندلسيين وميولهم يقول الشاعر ابن الطفيل "ان الاتجاه الفلسفي اعدم من الكبريت الاحمر ولاسيما في هذا الصقع الذي نحن عليه لانه من الغرابة في حد لايظفر باليسير منه الا الفرد بعد الفرد ومن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس الا رمزاً فان الملة الحنيفة والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت منه"(١)ويرجع ذلك الى سببين يتجلى الاول منهما في طبيعة الفرد الاندلسي تلك الطبيعة التي تجنح غالباً الى التسهيل والتبسيط في تناول الأمور فهم يعشقون الجمال المتسم بالصفاء واللين ويفضلون تناول الامور من غير تعقيد او تكلّف اوقسر(٢)لذا كان الشاعر الاندلسي يحرص جاهداً على حيازة اكبر قسط من صفات الجمال الساذج وتوفير اكثر ما يمكن من السهولة في الفكر والبساطة في المعاني ليخلص نظمه من التعقيد والغموض واجهاد الفكر والعقل في صياغته ٠

اما السبب الثاني فيتمثل في موقف الفقهاء والخلفاء الاندلسيين الذي اتسم بالتشديد وانكار الاتجاه الفلسفي اذ يرون فيه افساداً لعقائد عامة الناس فضلاً عن زرع الشك في انفسهم اذ يعدونه مزلقاً من مزالق الكفر والالحاد(٣)كل ذلك كان له الاثر الكبير في تأخر الفلسفة وتضييق نشاطات التفكير الفلسفي لذا نجد الشعر الاندلسي خالياً من اسماء لامعة في هذا الميدان ،حتى كان القرن الخامس الهجري فظهر ابن حزم الظاهري الذي كان ثورة في تاريخ الاندلس الفكري(٤) على الرغم مما لاقاه من عنت وما تحمله من مشاق ومحاربة الفقهاء والحكام وعلى الرغم من ذلك كله ثبت ووقف صامداً ينشر آراءه ويدافع عنها يقول:(٥)

أنا الشمسُ في جوِّ العلوم منيرةٌ
ولكنَ عيبي ان مطلعي الغربُ
ولو أنني من جانب الغرب طالعٌ
لجدَ على ما ضاعَ من ذِكريَ النَهبُ

ولي نحو اكناف العراق صبابةٌ
ولاغرو ان يستوحشَ الكلفُ الصبُ
ينزل الرحمن رحلي بينهم فإن
فحينئذٍ يبدو التأسف والكربُ
فكم قائلٍ اغفلته وهو حاضرٌ
واطلب ما عنه تجيء به الكتبُ
هناك يدري ان للبعد قصة
وأن كساد العلم افتنهُ القربُ
فيا عجباً:من غاب عنهم تشوقوا
له،ودنو المرء من دراهم ذنبُ

اذ يعالج الشاعر بوساطة هذه الابيات حالته النفسية وما يعتريه من الم ،اثر انكار اهل الاندلس لفضله ،وتوقعه الرحلة الى العراق،وهي اماني جاشت في نفسه،فهو الشمس المنيرة التي عيبها الوحيد مطلعها من جهة الغرب ولو كان مولده في المشرق لتنافسوا على عمله ورفعوا من قدره،ويشير الشاعر كذلك انهم سيندمون على اعراضهم له عندما يفقدونه ويشعرون بالحاجة اليه والذي يبدو من هذه الابيات شيء من الاعتداد بالنفس ،وهي تعظيم الذات بشكل لافت للنظر(٦)

اذن كان ظهوره سبباً في تقدم الفكر الحر وخطوة للامام فازدان فيما بعد القرن السادس الهجري بنجوم الفلاسفة المسلمين في الاندلس من امثال ابن باجة وابن رشد وابن الطفيل (٧)والمتمعن في اشعار ابن حزم الظاهري يجد أن الاتجاه الفلسفي يتجلى في شعره عبر اتجاهين اثنين هما :-

الاول :الاتجاه العام (الظاهري)

الثاني :الاتجاه الخاص(الباطني)

المبحث الأول
الاتجاه الظاهري

الاتجاه الظاهري:-

فقد كرّسه ابن حزم الاندلسي لمعالجة نواحٍ اخلاقية وقضايا اجتماعية تأتي النظرة الفلسفية للحب في مقدمتها ولما كان الفكر يتخذ من العقل اداة للمعرفة بينما يتخذ الشعر من الحدس وسيلة لها(٨)نتج من ذلك التمازج الفني صياغة المفاهيم المجردة التي لا تتاح الا من خلال ادراك المجهول عبر ايضاح علله واسبابه مما سيؤدي بالنهايه الى نشوء الفكر الفلسفي للحب(٩)وبهذا يكون الحب الحقيقي مرحلة سامية يصل اليها الانسان الواعي فاذا كان عماد الفكر الحقيقية العقلية المحضة فالشعر الغزلي ايضا فكر لكن عماده التخييل فالحب ليس من الجهل وسقوط من عين العقل بل هو عند ابن حزم الظاهري غريزة غرسها الله عز وجل في نفوس الخلق تكتمل بين الرجل والمرأة ،لذا اقره الدين والعلم فلا يخلو منه انسان(١٠)وقد طور ابن حزم فلسفة الحب وزاد فيها من معاني العفة والتصَون واستهدف فيه تهذيب الغرائز والتسامي بالعواطف وترويض النفوس عن مطالب الغريزة والشهوة الزائلة يقول الشاعر(١١)

وددت بان القلب شُقَّ بمديةٍ وادخلت فيه ثمّ اطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيرهُ الى مقتضى يوم القيامةِ والحَشرِ
تعيشين فيه ما حييتي فأن امُت سكنتِ شغاف القلبِ في ظلمِ القبرِ

فالشاعر يتكأ على اسلوب التعليل المنطقي في حبه فعاطفته المبثوثة في اشعاره الغزلية عاطفة رزينة يكاد العنصر الفلسفي يتغلب ويطغى عليها فهو لاينقاد الى الشهوة ولاينصرف بتيار الغريزة بل يتحكم في كل ذلك بأرادته جاعلاً اسرار الحب والتكتم عليها من الاسرار التي يخفيها حتى على اصدقائه واقرب الناس اليه(١٢)

للسرِّ عندي مَكانٌ لو يحلّ بهِ
حَيٌّ أذاًلاهْتَدَى رَيْبُ المَنونِ لَهُ
أميتةُ وحياةُ السرّ ميتتُهُ
كما سُرورُ المُعنّى في الهوى الولَهُ

وقوله ايضاً(١٣)

محبّةُ صدقٍ لم تكُنْ بنتَ ساعةٍ
ولا وريتْ حينَ ارتيادِ زنادُها
ولكنْ على مهلٍ سَرَتْ وتولّدتْ
بطولِ امتزاحٍ فاستقرّ عمادُها
فلم يدْنُ منها عزْمها وانتقاضُها
ولم ينْا عنها مُكثُها وازديادُها
يُؤكد ذا انا نرى كلّ نشأةٍ
تتمّ سريعاً عنْ قريبِ معادها

فيؤكد عبر استدلال عقلي ان الحب من النظرة الاولى ليس صحيحاً فالحب به حاجة الى التعارف والتفاهم والانسجام وما الحب من النظرة الاولى الا ضرب من الشهوة الزائلة ومن ذلك قوله(١٤)

جرى الحبّ مني مجرى النفسْ
وأعطيتُ عيني عنانَ الفرسْ
ولي سيدٌ لم يزلْ نافراً
وربما جادّ لي في الخلسْ
فقبلتهُ طالباً راحةً
فزاد اليلاً بقلبي اليبسْ

وفي موضع آخر نجدهُ يعمد الى الفلسفة الاغريقية في فصل الروح عن الجسد جاعلاً اياها مادة لصورته الغزلية قائلاً(١٥)

لئن اصبحت مرتحلاً بشخصي
فروحي عندكم أبداً مقيمُ

حتى نجد أنّ الشاعر قد ربط فلسفة الحب بالنظرة الافلاطونية عبر التميزبين الحب والشهوة ورفض فكرة التعلق بشخصين في آن واحد مؤكداً وحدانية
الحب (١٦)

كذب المدّعي هوى اثنين حتْماً

مثْل ما في الاصولِ أكذب ماني
ليْسَ في القلبِ مَوضعٌ لحبيبين
ولا احـــــدثُ الامــورِ بـثــانٍ
فَكما العقلُ واحدٌ ليسَ يـدري
خــالقــاً غــيرَ واحــدٍ رحمــانِ
فكذا القلب واحد ليس يهوى
غيــر فرد مبــاعد او مــدانِ

فهو يؤمن بالوحدانية سواء أكان على صعيد الدين أم الحب ويستنكر التقلب فيه ٠
ونجده ايضا يتعرض لمعانٍ فكرية تترشح من قضية الحب وماهيته بأسلوب منطقي وهي قضية التذلل للحبيب يقول(١٧)

ليس التذلل في الهوى يُستنكر
فالحبُّ فيه يخضعُ المستكبرُ
لاتعجبوا من ذلتي في ترحالةٍ
قد ذلّ فيها قبلي المستنصرُ
ليسَ الحبيبُ مماثلاً ومكافياً
فيكونَ صبرُكَ ذلة إذ تصبرُ

تُفاحـةٌ وقعـتْ فآلـم وقعُـها
هلْ قطْعُها مِنكَ انتصاراً يُذكرُ

فهو يعمد الى اسلوب الاقناع المنطقي في اثبات فكرته مستثمراً مناظراً استقاها من مشاهد يومية مألوفة للقارئ للوصـول الـى مبتغاه، ومن هنا نشأ ت عنده **قضية الموت حباً** وهي قضية عظيمة لا يفقهها الا من عرف فلسفة الحب وماهيته يقول(١٨)

هل لقتيل الحبِّ من وادي
أم هل لعاني الحبِّ من فادي

إذ يروي لنا ابن حزم الظاهري في كتابه(طوق الحمامة)حادثة تؤيد ما يذهب اليه قـائلاً"وأعرف مـن اتـى يـودع محبوبـه يـوم الفراق فوجده قد مات ،فوقف على آثاره ساعة،وتردد في الموضع الذي كان فيه ثم انصرف كئيباً متغير اللون،فمـا كـان بعـد ايام قلائل ،حتى اعتل ومات "(١٩)

وفي موضع آخر نراه يعمد الى افادة التشخيص في انسنة المعنويات كي يترجم ملمحاً مادياً خارجياً الى ملمحٍ نفسـي داخلـي يقول(٢٠)

ولمَّـا تروَّحـنا بأكنافِ روضــةٍ مُهدّ لة الأفنانِ في تُربها الندي
وقد ضـحكتْ أنوارُها وتضوَّعتْ أسـاورُها في ظلّ فيء مُمـدَّدِ
وأبدتْ لنا الاطيار حُسْنَ صَريفها فَمنْ بين شاكٍ شَجْوه ومْغـرّدِ
وللمــاءِ فيمـا بيـنـنـا مُتصرّفٌ وللعين مُرتـادٌ هنــاك ولليدِ

ان افادة تشخيص الطبيعة في الابيات السابقة هي افادة ذهنية فكرية لان الفن الذي يعدم فضيلة العقل وتوازنه – في نظر ابـن حزم الظاهري – يعدم في آلان ذاته قدرته على البقاء والخلود وهذا المصداق ينصرف حتى الـى الشـعر الوجـداني عنـده فقد اخذ يجسد تباريحه وشوقه وكوامنه النفسية المختلجة الى محبوبته عبر عناصر الطبيعة غير ان آفة التعقل في شـعره كانـت سبباً في اخفاق الشاعر بما يحسه من الوجد وانسنتها عبر مظاهر الطبيعة بالافصاح عن احاسيسـه وكـوامن نفسـه حتـى جعل الشعر يجري في مخدع العقل والفلسفة(٢١)

وابن حزم الظاهري جياش العاطفة شديد التأثر بالجمال ومما ينم على تذوقه لمحاسن المرأة قوله(٢٢)

يعيبونها عندي بشقرة شعرها
فقلت لهم:هذا الذي زانها عندي
يـعيـبون لـون الـنـور والـتـبر ضِلـةً
لرأي جهول فـي الغوايــة ممتــد
وهل عاب لون النرجس الغض عائب
ولون النجوم الزاهرات على البعـد
وابـعد خلـق الـله مـن كـل حكمــة
مفضـل جرم فاحم اللـون مســود
بــه وصفـت الـوان أهــل جهـنـم
ولبسـه بـاكٍ مثكـلِ الاهـل مـحتـد
ومذ لاحت الرايات سـوداً تيقـنت
نفوس الورى ان لاسبيل الى الرشد

وتشف الابيات عن اعتداد الشاعر بذوقه وثقته بنفسه ولو كان في ذلك ما يغـاير رأي سـائر النـاس وهـذا مـا دأب عليـه ايضـاً طوال حياته من جهره بافكاره وحرصه على اعلان الحقيقة دون أنْ يهتم بما ينجم عـن ذلـك مـن رضـا او سـخط كمـا تعكـس القصيدة من جهة اخرى نزعة ابن حزم الى الاستدلال العقلي والقياس المنطقي وتنم عن ميله الى البرهان والمحاجـة الفلسـفية فضلاً عما تنضوي عليه هذه الابيـات مـن دلالات اجتماعيـة ونفسـية فبيـاض الاجسـاد وشـقرة الشـعور اصـبحتا فـي عصـره شائعتين في المجتمع الاندلسي فلم تعد الوجوه السمر والشعور الفاحمة سائدة في هيئات الاندلسيين واشكالهم(٢٣)

ولعل النزعة الفلسفية لابن حزم الظاهري تبدوعلى نحو جلي عند تناوله لمعنى اخلاقي اوسمة يريد الافصاح عنها اذ يستطرد

من المعنى الى تفصيله واظهار صحته بالبينات والشواهد وهي امور تكشف لنا الى أي حدٍّ تطّبع ابن حزم الظاهري بطباع الفلاسفة والمتكلمين فمن البديهي ان علم الاخلاق فرع من فروع الفلسفة وشعبة من شعبها (٢٤)وهو يبحث في السلوك الانساني والمقياس الذي تقاس به الاعمال الخيرية والشّرية ليفعل الانسان ما ينبغي له فعله ويترك ما ينبغي له تركه والقضايا الاخلاقية عملية تطبيقية بأكملها لانها دراسة للاعمال والافعال من حيث حسنها وقبحها لادراسة لآراء ومعتقدات من حيث صوابها وخطاؤها فهو يحل مشاكل عملية لافكرية (٢٥)لذا غدا شعره في هذا المجال جدلياً انضوائياً يقوم على النقاش والمجادلة ولاسيما عند معالجته للآفات الاجتماعية التي كانت منتشرة في عصره يقول(٢٦)

أباح ابو مروانَ حُرَّ نسائهِ
ليبُلغ ما يهوى من الرشا الفَردِ
فَعاتبتُهُ الدَّيوث في قُبح فعلهِ
فأنشَدَني إنشادَ مستبصرٍ جلدِ
لقد كنتُ أدركتُ المُنى غير أنني
يُعيّرني قومي بإدراكها وحدي

فهو يدين ظاهرة الخلاعة التي كانت منتشرة في عصره ويحذر منها ويصفها (بقبح المعصية)وهي ظاهرة اجتماعية مستفحلة في المجتمع الاندلسي مما يدفع ابن حزم الى محاربتها والوقوف ضدها ويقول في وصفه رذيلة الكذب(٢٧)

وأكذبُ من حُسنِ الظّنونِ حديثُهُ
وأقبحُ من دينٍ وفقرٍ ملازمِ
اوامرُ ربّ العرشِ أضيعُ عندهُ
وأهونُ من شكوى إلى غير راحمِ
تجمَّعَ فيه كلُّ خزيٍ وفضحةٍ
فلم يُبقِ شتماً في المقالِ لشاتمِ
وأثقلُ من عذلٍ على غير قابلٍ
وأبردُ برداً من مدينة سالمِ
وأبغضُ من بينٍ وهجرٍ ورقبةٍ
جُمعنَ على حرّانَ حيرانَ هائمِ

فصفة الكذب ذميمة وغير مرغوب فيها وقد اثبتها الشاعر لمهجوه كاشفاً – عبر هذه الابيات التي ضمنها الشاعر الحجج والبراهين –للقارئ عن صفة الكذب التي لازمت المهجو حتى أصبحت هذه الصفة المذمومة متجسدة فيه ملازمة له ويقول في رذيلة النميمة (٢٨)

أنمُّ من المرأةِ في كلّ ما درىَ
واقطعُ بين الناسِ من قصبِ الهندِ
أظنُّ المنايا والزّمان تعلمّا
تَحيلهُ بالقطعِ بين ذَوي الوُدَّ

واصفا عبر هذين البيتين وباسلوب عقلي آفة النميمة في قطع اصر المودة بين الناس وتشتيت ذوي الرحم ولعل هدفه من وراء ذلك ليس التعرض بالمجتمع الاندلسي فحسب انما تحذير الناس من هذه الصفات غير الحميدة مستعينا بالمعاني الاسلاميه في ذلك

والمتمعن في ابيات ابن حزم الاندلسي يجدها تخلو من جمال الصورة وسعة الخيال فهي عبارة عن افكار ومفاهيم منطقية في قالب شعري فهو لاينظم الفلسفة شعرا انما يلبس افكاره ومعانيه حلة الفلسفة (٢٩) يظهر ذلك جليا في رثائه لعبد الرحمن المرتضى اخر خلفاء بني اميه في الاندلس (٣٠)

أساعةُ توديعك ام ساعةُ الحشر
وليلةُ بيني منك ام ليلة النشرِ
وهجرك تعذيبُ الموحِّد ينقضي
ويرجو التلاقي ام عذابُ ذوي الكفرِ
سقى الله اياماً مضت ولياليا
تحاكي لنا النَّيلوفر الغضّ في النّشرِ
أليس يحيطُ الرَّوح فينا بكلّ ما
دنا وتناءى وهو في حجُبُ القدرِ

كذا الدهُر جسمٌ وهو الدَّهر روحهُ
محيطٌ بما فيهِ وان شئتَ فاستقرِ
إتاوتها تُهدى إليه ومنهُ
تقبلها منهم يُقاوم بالشّكرِ
كذا كل نهرٍ في البلادِ وإن طمتْ
غزارتهُ ينصبُّ في لجّج البحرِ

فهولا يصف عبر هذه الابيات مرثيه بالشجاعة والكرم والجود فحسب انما يحاول ان يرسم للقارئ صورة شعرية لمثل انساني عالٍ تمليه عليه افكاره وتأملاته الفلسفية تلك التأملات التي تعلي من شأن الروح وتراها حقيقة الانسان وجوهره وتحط من قيمة الجسد وتعده الاداة التي تستعملها الروح وتسيره حسب مشيأتها وتدبره وتعنى بأمره (٣١)وهي افكار استقاها

الشاعر من فلاسفة الاغريق امثال فيثاغورس وسقراط وافلاطون فقد اجمع هولاء الفلاسفة على أنّ الفضائل والسعادة كلها ترجع الى الروح وحدها وان البدن ليس الا آله لها وان في الموت خلاصها وتحريرها (٣٢) موظفاً هذه الحقيقة العقلية في بناء صورته الفنية ٠

هوامش المبحث الاول

١- ابن طفيل قضايا ومواقف:٥٧
٢- ينظر الشعر في ظل بني عباد:٦٦
٣- ينظر الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس:٧٣
٤- ينظر الشعر في ظل بني عباد:١٨٨
٥- المورد:١٠١/١
٦- ينظر ابن حزم الاندلسي شاعراً-دراسة مضمونية فنية (رسالة ماجستير):٤٤
٧- ينظر الشعر في ظل بني عباد:١٨٨
٨- ينظر اتجاهات شعر الغزل في عهد الطوائف(رسالة ماجستبر):١٠٥
٩- ينظر المصدر نفسه:١٠٦
١٠- ينظرالمصدر نفسه:١٠٦-١٠٧
١١- المورد:٧٧/٢
١٢- المصدر نفسه:١٠٢/٥
١٣- المصدر نفسه:٧١/٢
١٤- المصدر نفسه:٩٥/٣
١٥- المصدر نفسه:٩٥/٥
١٦- المصدر نفسه:٩٩/٥
١٧- المصدر نفسه:٧٥/٢
١٨- المصدر نفسه:١٠٦/٣
١٩- طوق الحمامة:٩٦
٢٠-المورد:٦٧/٢-٦٨
٢١- ينظر ابن حزم الاندلسي شاعراً-دراسة مضمونية فنية(رسالة ماجستير):٢٥
٢٢- المورد:٦٩/٢
٢٣- ينظر ملامح السعر الاندلسي:١٢١
٢٤- فلسفات اسلامية:٢١٥
٢٥- المصدر نفسه:٢١٦
٢٦- المورد:٢٧/٣
٢٧- المصدر نفسه:٩٤/٥
٢٨- المصدر نفسه:٧٠/٢
٢٩- دراسات اندلسية في الادب والعلم والفلسفة:٩٥
٣٠- المورد:٧٥/٢
٣١- ينظر في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام:٣٢
٣٢- قصة الفلسفة اليونانية:١٤٢

المبحث الثاني
الاتجاه الباطني

الاتجاه الباطني(الخاص)

استمده ابن حزم الظاهري من ثقافته الجدلية فقد كان يهرب اليه من قسوة الظاهر وحدة صلابته(١)اذ كان لجدلية الحياة والموت التي قوامها زوال الدنيا وقصر اجلها وتقلب احوالها ما يؤكد نضجه الفكري لقد انماز ابن حزم الظاهري عبر هذا الاتجاه بالتلميحات والايحاءات التي تدل على مدى اطلاعه وثقافته الواسعة فقد استطاع بما رزق من موهبة وملكة ادبية ان يغترف من منهل الحكمة ومن النواحي كافة فمن جهة هو قد خبر الحياة وعاش ردحاً من الزمن في كنف الخلفاء والامراء ومن جهة اخرى استطاع ان يجوز علم الفلسفة والمنطق مما قاده الى نتائج عقلية فلسفية في شعره (٢)

فالقاريء لاشعار ابن حزم الظاهري يجد ان نظرته لثنائية الحياة والموت قد جاءت متفرقة متناثرة في شعره وهي وإن كانت شذرات قليلة الا انها تعج بالنضج الفكري والنظرة الفلسفية للامور ،فهو يرى الايام بتصريفها وتقلبها لايقر لها حال ،تفرح الانسان حياً وتبكيه دهراً لا يأمن العاقل غول مصائبها،وتمر هذه التأملات في ذهنه فإذا هي تجري ابيات من الشعر على لسانه يحسها فؤاده فتتجلا حكمة الموت والحياة في شعره بصورة واضحة ومن ذلك قوله(٣)

أعارتْكَ دُنْيا مُسترِدٌ مُعارهَا
غضارةَ عيشٍ سَوْفَ يذوي اخْضِرارُها
وهلْ يتمنَّى المُحكمُ الراي عيشةً
وقدْ حانَ من دُهْم المنايا مزارُها
وكيفَ تلذّ العينُ هجعة ساعةٍ
وقدْ طالَ فيما عاينتهُ اعتبارُها

وكيفَ تقرّ النَّفسُ في دارِ نقلْةٍ
قد استيقنت ان ليــسَ فيها قرارُهـــا
أليس لها في السَّعْي للفوز شاغِلٌ
أما في توقِّيها العـذابَ ازْدجـارُهـــا؟

والمتأمل لهذه الابيات يجدها تأملات فلسفية تتجاوز ما تعارف عليه عامة النـاس مـن ان السـعادة فـي الاغتـراف مـن متـاع الدنيا وانما تنفذ الى ما يتخللها من الم وحسرة فإذا كان اصحاب الزهد الديني يصدرون في زهدهم عمّا يوجـه اليـه الـدين مـن اهتمام بالحياة الاخرة طلباً لنعيم الاخرة فابن حزم الظاهري لايضع اهتمامه للاعتبارات الدينية وانمـا يصـدر فـي زهـده عـن تفكير خالص ورؤية خاصة بالحياة قوامها التأمل العقلي (٤)

فالشاعر يتأمل في فناء الدنيا وزوال متاعها حتى يراهـا هينـة الشـأن قليلـة القيمـة لاتسـتحق ان يحيـا لهـا الانسـان اوان يحرص عليها ومن ثم فأنه يزهد فيها،فالموت قد قدم الحجة للعاقل على تفاهة الحياة وغدرها ٠وهكذا استطاع الشاعر ان ينفذ بصيرته الى حقيقة الحياة وتقلب احوالها٠

ولما كان علم الفلسفة والمنطق احد اهم الركائز الثقافية التي استند عليها ابن حزم الظاهري في تحليله للامور واسـتخراج الحكمة منها فانه يدعو الى اكمال العقول والتدبر في امر الموت واتخاذ العبر والدروس منها ومن ذلك قوله(٥)

ولاتتخير فانيــاً دون خــالـد
دليل على محْضِ العقول اختيارُها
وَاياكَ ان تغترَّ منها بما ترى
فقد صَحَّ في العقـلِ الجليّ عيارُهـا

وقوله ايضاً(٦)

دع عنك داراً تفنى غضارتها
ومكسباً لاعبـاً بمكسـبــهِ
لم يضطرب في محلها احـدٌ
الا نبـا حـدُهـا بمضطربــهِ
من عرف الله حق معرفهِ
لوى رحلّ الفؤاد في رهبــهِ
فكيف النار للمسيء اذاً
عاج عن المستقيم من عصبهِ

ان فلسفة الحياة والموت تبدو ظاهرة وبصورة جلية في هذه الابيات لكل من يمتلك معرفة بسيطة وروحـاً تحـس الشـعر فقد عمد ابن حزم الاندلسي الى اعمال العقول باسلوب الاقناع المنطقي للوصول الى عدّة نتائج تتمثـل بالزهـد فـي الحيـاة وتركهـا عبر مجموعة من المقدمات قوامها فناء الدنيا وقصر عمرها وانهاء لـذتها ، وهـو بهـذه الفلسـفة يعـود بنـا الـى فلسـفة المعـري ورأيه في الحياة والموت ولكن بصياغات مختلفة تبعا لاختلاف المعطيات الثقافية والفكرية لكل عصر (٧)فكلا الشـاعرين مـا ان يذكران حقيقة عقلية حتى يربطانها بمجموعة من المقدمات توصل القارئ وباسلوب منطقي لايترك مجالاً للشك الـى نتـائج عقلية ومن ذلك قول ابن حزم الاندلسي (٨)

فما هذه الدار إن حصلتْ
حقيقتها غير طيف ألمْ
سيفنى العزيز ويفنى الذليل
وتفنى القوى ويفنى الألـمْ
يبـيدُ الجميـعُ فلا تغتـرِرْ
بمـا لايـدوم لمـنْ لـم يـدمْ
فأيـن الذيـن بنـوا تدمـراً
وباني البرابي وباني الهـرمْ
وأين الألى أحكموا قادساً
وعـقد قنـاطـرهـا والصنـمْ
أولئك أهل القوى قد مضوا
كما قد مضى سد سيل العرم
فمن حال طفل الى صبوة
وشـرخ شباب ويأتي الهرم
وتأتـي المنـية لابـد أنْ
يطيف بنا حكمهـا الملتـزمْ

ومن بعد ذلك دارُ الجزاء
وما قد مضى فكماضي الحلمْ
فدار النعيم لأهل الفلاح
ونارُ لمن قد عصى تضطرمْ
فبادرْ قبيل حلول الردى

فتندم إذ ليــس يغني النـدم

لقد كان هذا الشعر مكرساً لمخاطبـة العقـول واثـارة التأمـل لسـرعة زوال الـدنيا وتقلـب احوالهـا وهـو احـد محصـلات التكوين المميز لثقافة ابن حزم الظاهري إذ نحس في اثناء قرائتنا لقصيدته انه يزهد في هذه الدنيا التي لاتستحق كل ما يعانيـه الانسان من اجله فأنها في نظره لحظات تمر ومن بعدها يأتي الموت الذي لايعرف كبيراً اوصغيراً معتمداً اسـلوب الاسـتنباط الرياضي الذي اعتمده ديكارت(٩) وسلم به العقليون من بعده ويتلخص في استخراج الحقيقة مـن البـديهيات التـي يجـزم بهـا العقل لذاتها لا لدليل خارجي يثبت صدقها فينتقل الذهن مباشرة ودون توسـط عمليـات فكريـة مـن قضـية معلومـة الـى حقيقـة مجهولة وقوله ايضاً (١٠)

لاتُتبع النَّفس الهوى
ودع العرض للمحن
ابليس حيٌّ لم يمت
والعين بـابٌ للفـتن

فنلحظه يرسم صورة النفس وكأنها انسان يتبع الهوى ولما كانت العين هي اول ما يمـد الفكـر الانسـاني بالصـور الخارجيـة فهي باب للفتن ٠وفي موضع آخر نجده يضمن اشعاره الفاظاً خاصة بعلم المنطق كقوله(١١)

ولما رأيت الشــيبَ حل مفارقـي
نذيراً بترحال الشباب المفارقِ
رجعتُ الى نفسي فقلتُ لها انظري
الى ما اتى هذا ابتداء الحقائقِ

فالشيب وان كان امراً مألوفاً للجميع الا انه في فلسفة الشاعر وقفة للتأمل والتفكر اذ يرى بمقدم الشيب البدايات الصـحيحة للحقائق و المعرفة الانسانية وقوله(١٢)

ترى كــلَّ ضـدٍّ بــه قائمــاً
فكيف تحدُّ اختلاف المعاني
فيا ايها الجسمُ لا ذا الجهاتِ
ويــا عـرضــاً غـيــر فــان
نقضت علينا وجوه الكـلامِ
فما هو مُذ لُحت بالمستبانِ

وقوله ايضاً(١٣)

إذا ما وجدنا الشيء علّة نفسه
فذاك وجود ليس يفنى الى الابدِ

وهي تلميحات وإيحاءات ظلت مستمدة من ثقافته الجدلية التي استمدها تارة من الفلسفة الافلاطونية التي تـرى ان الـنفس هـي العنصر الجوهري في الانسان وانها ذات استقلال فلا يدخل البدن في تعريفها ولايعـد جـزءاً مـن ماهيتهـا فهـي المبـدء الـذي تفيض منه الحياة على الجسم وهي التي تحركه وتعنى بأمره (١٤) وتارة اخرى من فلسفته الاسـلامية التـي تـرى أن مـا كـان واجباً بالذات لا يمكن أن يكون ممكناً او ممتنعاً بالذات لان معنى وجوبه بالذات أنـه لـم يوجـد بسـبب مُوجـد لان مـا بالـذات لا يتغير ولا يزول وهو الله سبحانه عز وجل لذا اتفق الفلاسفة على انهم من وجب له القدم امتنع عليه العـدم وهـذه القضـية تعـد من أمهات القضايا الفلسفية التي تناولت وجود الله عز وجل (١٥)التي كانت مـداراً للمجادلـة والنقـاش عنـد الفلاسـفة القـدامى والمحدثين من المسلمين وغيرهم ٠

لقد افرزت هذه الفلسفة - التي آمن بها ابن حزم الظاهري واتخذها منهاجاً لـه فـي حياتـه- ايثـاره للعقـل وعـده فضـيلةالنفس الاولى والوسيلة الى كمالها وسعادتها وهو ما نجد جذوره عند فلاسفة الاغريق القدامى فمثلا سقراط يرى ان العقل والمعرفـة منع الاخلاق الفاضلة ومصدر الخير للانسان(١٦)ولذا نراه مراراً وتكراراً يعزو هو وافلاطون في جمهوريته ما في الطبيعـة البشرية من فساد وشر الى الجهل والحمق والطيش وان التفكر والتعقل هو الذي يكبح جماح الشهوات الانسانية(١٧)وفلاسـفة الهنود يرون ان الجهل هو وثاق النفس بالمادة وخلاصها يكون بالعلم لان النفس اذا احاطت بالاشياء عقلت ذاتها وادركت مـا للمادة من خسة وفناء فاستغنت عنها وتحققت ان مـا كانـت تظنـه خيـراً ولـذة هـو شـر وشـدة فحصـلت علـى الحقيقـة بالتـدبر والتعقل(١٨)والفيثاغورسيون يرون ان تطهير النفس لايكون الا بالتفكير في الفلسفة والعلوم (١٩)ويرى هيجل ان كل ما هو عقلي حقيقي وكل ما هو حقيقي عقلي(٢٠)

وقد تأثر فلاسفة المسلمين بهذه الفلسفة فابن سينا(١٠٣٧م)يرى ان الفلسفة هي تاج الفكر واخوان الصفا يقررون ان المعرفة لب حياة النفس وعنوان التقدم العقلي في الامة(٢١)

ولا غرو ان يتأثر ابن حزم الاندلسي بهذه الفلسفات حتى يجدها القارئ مبثوثة في اثناء شعره فالنظر العقلي عند الشاعر هو اداة المعرفة الصحيحة وان المعرفة الحقيقية والسعادة والاخلاق تنال بالعقل يقول(٢٢)

إنما العقـل اســاس فوقه الاخلاق سورْ
فتحل العقــل بالعـل م والا فــهــو بــورْ
جاهل الاشياء اعمى لايرى حيـثُ يـدورْ
وتمــام العــلم بالــع م والا فــهــو زورْ
ملاك الجـود بالنجـا دة والجبن الغـرورْ

فخير النفوس في نظر الشاعر من تحلت بنور المعرفة وعرفت ذاتها وماهيتها ومم تكونت وبم حلـت وان الجهـل بـذلك رزء شديد تخب منه النفس في ظلمتها وتجعلها تتصف بمساوئ الاخلاق وقوله(٢٣)

ولا تتخير فانياً دون خالدٍ

دليل على محض العقول اختيارها

وقوله ايضاً(٢٤)

وإياك ان تغترَّ منها بما ترى
فقد صحَّ في العقل الجليّ عيارُها

وفي قصيدته يدعو للتفكير كما في قوله(٢٥)

أعمل الناس التفكر في الذي
له خلقوا ما كان حياً بضاحكِ

ومن هنا فقد كان هدف الشعر عند ابن حزم الظاهري هو مخاطبة العقول وإثارة التأمل عبر الفكر وهو احد محصلات ثقافته الفلسفية والدينية ٠

وتظهر نزعته الفلسفية والمتمثلة في اثبات حدوث العالم وصدق نبوة الرسول(ص) عبر مجموعة من الادلة والبراهين تخاطب العقول قبل العاطفة في ابيات تخلو من أية دلالات فنية او رمزية سوى انها ادلة منطقية تحاكي عقلية المستمع يقول(٢٦)

ومن هيئة الفلك المستدير وقفت على حده المنتظمْ
وما فيه من فلك دائرٍ ومن كوكب قاطع كالعلمْ
فأكتبرها قاصداً مغرباً وسائرها جهة الشرق أمْ
إدارة رب لها منشئ يصرفها امرهُ حيث حمْ
يخلف ما بين ادوارها سنن راتب مستتمْ
ليعلم اهل النهى انها مُدرة لحكيم حكمْ
وأن ليس تختار شيئاً ولا لها الحكم بل لإلاه الأممْ
يُدير بأزمانها دهرها فيثبتُ مبدوَها للفهمْ
وتشهد ان الذي صاغها هو الواحد الحق باري النسمْ
هو الاول المبتدي خلفها كما شاء إذ شاء فرْقٌ وضمْ
فأبدى الزمان وأبدى المكان وما فيهما صاغ بدءاً ولمْ
هواءٌ وماءٌ وارضٌ ونارٌ ومشرقُ انوارها والظلمْ
نهارٌ مضيء وليل أحم وبحرٌ عميقٌ وطودٌ أشمْ
وركب لاميها كيف شاء سُكان برٍّ وسكان يَمْ
ونبْتٌ يقومُ على ساقه وآخر لاساق ذيُعليهِ ثمْ
بلا فيم قطعاً ولا لمْ ولا هنالك ممْ ولا فيه كمْ
ولا كان شئٌ سواه له مثالا ولا مُخرْباً ما نظمْ
فصاغ العقول كما شاءها فمن شاء أذكى ومن شاء أصمْ
وركبها في النفوس التي كما شاء انشأها ربكمْ

:
:
:

فأبدى اللغات واعطى العلوم وأفشى الصناعات والكل زمْ
ولولا التعاليمُ لم ندرها ولا عاش حيٌّ ولم تغْذُ أم
فصحَّ بذلك إرسال منْ به علم الناس ما قد علمْ
فيالك برهان حق بدا فجلى من الجهل ما قد أهمّ
بصدق النبوة والمبتدي لخلق الجميع ومنشي النعم
فأرسل مرسله بالهدى على ما قضاه وما قد حتم
مُحمد المصطفى بالكتاب به انبياء الهُدى قد ختم
فشق له القمر المستنير بحضرة راضين أو من زعمْ
وأبدى الينابيع من كفه فأروى به الجيش والجيش حمْ
وأعجز في نظمْ قرانه أولي حضرٍ وبداة الخيم

ومن الثابت أنّ الهدف الاول للفيلسوف هو معرفة السبب البعيد وعلة العلل وبما ان السبيل الوحيد الى هذه المعرفة هو العقل(٢٧)لفت ابن حزم الاندلسي عبر ابياته الناس الى الدلائل الكونية من خاق السموات والارض وما فيها من عجائب المخلوقات وامرهم باعمال العقل فيها ليصلوا الى معرفة الخالق عزَّ وعلا وصدق نبوة الرسول(ص)وقد عبر ابن رشد عن هذا النوع من التدليل بدليل العناية والنظم(٢٨)وقال اتباع الفلسفة اليونانية :ان الكون سلسلة من الحوادث وكل حادث لابد له من مُحدث وللعالم إذن محدث وهو الله عز وجل(٢٩)

وإذا كان عامة الشعراء اعتادوا على مدح خلفائهم ومرؤوسيهم بالمعاني التقليدية المعروفة من الشجاعة والكرم والإباء نجد ابن حزم الظاهري ينحو منحىً فلسفياً في مدحه للخليفة بقوله(٣٠)

أمن عالم الأملاكِ أنت ام انسيُّ؟
أبنْ لي فقد ازري بتمييزي العيّ
أرى هيئةً انسيةً غير أنهُ

إذا أعمل التفكيرُ فالجرمُ عُلويُّ
تبارك من سوَّى مذاهبَ خلقه
على انكَ النورُ الانيقُ الطبيعيُّ
ولاشكَّ عندي انك الروحُ ساقهُ
إلينا مثالٌ في النفوسِ اتصاليُّ
عدمنا دليلاً في حُدوثك شاهداً
نقيــسُ عليــه انــك مرئـــيّ

فالشاعر يخرج ممدوحه من مصاف البشر ويرفعه الى مرتبة الالوهية مستقياً جلَّ معانيه تارة من نظرية المثل لافلاطون (٣١)التي تقسم الوجود على قسمين عالم علوي سماوي تكون فيه المثل وهي صور مجردة لاتتغير ولا تفسد ولا تموت وعالم سفلي ارضي يفسد ويتغير ويموت،وتارة أخرى من مسألة فلسفية تعد من اجل المسائل واهمها وعليها ترتكز قواعد الاديان السماوية كلّها وهي أن القديم واحد لاغير وهو الله سبحانه وتعالى وأنه وجد في الازل وما عداه حادث ومخلوق (٣٢)موظفاً إياها في مدحه للخليفة٠

ولما كان ابن حزم الاندلسي عالماً جليلاً وأحد فقهاء المسلمين فقد حرص على التوافق بين الدين والفلسفة او بتعبير آخر توظيف الفلسفة لخدمة الدين فقد يرى أن الفلسفة بما تعني استخدام العقل لمعرفة الاشياء (٣٣)فهي تؤيد نظريات الدين وان الدين يشكل مدداً للفلسفة؛ لان الغاية منهما هي معرفة الله عز وجل ،فمن الثابت عند المناطقة أنّ العلوم الحقيقية التي لايراد بها الا الحق الصريح لاسبيل لاثباتها الا بالبرهان والبرهان عندهم هو قياس مؤلف من يقينيات ينتج يقيناً بالذات(٣٤) فالبرهان هو اجراء عملية في المعلومات الحاضرة لاجل الوصول الى المطلوب، والمطلوب هو العلم بالمجهول وبناءً على هذه نجد ان ابن حزم الظاهري قد وظف هذه الحقيقة لخدمة الفكرة الغيبية التي اراد ايصالها لعامة الناس متكئاً على البرهان عبر يقينين اثنين يجدها القارئ مبثوثة في ثنايا شعره يتجسد اليقين الاول في الحقائق العقلية من جهة واليقين الثاني في النصّ القرآني من جهة اخرى وغالباً ما يستثمر ذلك التمازج اليقيني في تدعيم افكاره وآرائه المنطقية التي يريد اقناع القارئ بها٠نرى ذلك جلياً في دراسته لماهية الحب عبر كتابه طوق الحمامة منتهياً الى فكرة التشاكل في الحب وان سر التمازج بين المخلوقات هو الاتصال في عنصرها الرفيع (٣٥)منطلقاً من قوله تعالى ﴿ وهو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعل منها زوجهاليسكن اليها﴾(٣٦)ليصل الى حقيقة فكرية مفادها "ان لايوجد اثنان يتحابان الا وليس في الاشكال والهيئات وهو اقرب للواقع العلمي والعقلي"(٣٧) يقول (٣٨)

ودادي لكِ الباقي على حسب كونهِ
تناهي فلم ينقص لشيء ولم يزدّ
وليــس له غــير الارادة علّـــة
ولاسببٌ حاشــاه يعلمه احــد
اذا ما وجـدنا الشيء علّة نفســه
فذاك وجودُ ليس يفنى الى الابد

فقد جعل غاية الحب باقية من دون ان تزيد او تنقص لاتفاقها في عناصرها او جوهرها الاول التي خلقت منه٠

وقد يعمد الى تفعيل فكرته عبر الشواهد القرآنية التي يذكرها بالشكل الذي لايدع مجالاً للشك في اليقينيات التي يريد اثباتها يقول(٣٩)

أقصر عن لهوه وعن طربه
وعفَّ في حبّهِ وفي عُربهْ
فليس شرب المدام همته
ولا اقتناص الظباء من اربهْ
الهاه عما عهدت بعجبه
خيفة يوم تبلى السرائرُ بهْ
دعْ داراً تفنى غضارتها
ومكسباً لاعباً بمكتسبهْ
لم يضطربْ في محــلها احــدٌ
الا نبا حدها بمضطربــهْ
منْ عرف الله حــــق مــعرفةٍ
لوى وحل الفؤاد في رهبــهْ
فكــيف النــــار للمســـــيء اذاً
عاج عن المستقيم من عصبهْ
ويوم عرض الحساب يفضحه ال
له ويبدي الخفي من ريبـــهْ
من قد حـــــباه الالــه ورحمــته
موصولة بالمزيد من نــشبهْ

ان الترابط الموضوعي في قصيدة الشاعر مبني على تواصل المضامين القرآنية مع النص الشعري هذا الترابط الذي خدم فكرته في التذكر والوعظ فقد بدأ ابياته بدعوة عقلية لترك الملذات واليقظة عما يلهيه وتوعيه القلب بفناء هذه الحياة والتوجه الى الله والخشية من عقابه ثم يعمد لتفعيل هذه الافكار بنصوص وآيات قرآنية منها قوله تعالى ﴿يوم تبلى السرائر﴾(٤٠)وقوله تعالى﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار﴾(٤١)

لقد أفاد ابن حزم الظاهري من القصص القرآني الكريم في بناء شعره الوعظي الحكمي مقدماً تجربته الايمانية التي تقر بفناء الدنيا داعياً الى فضل التعفف في هذه الحياة إذ يقول(٤٢)

فعجل الى رضوان ربك واجتنب
نواهيه اذ قد تجلى منارها
تنادى الى يوم شديد مفزع
وساعة حشر ليس يخفى اشتهارها
اذا احشرت فيه الوحوش وجمعت
صحائفنا وانثال فينا انتشارها
وزينت الجنات فيه وازلفت
وازكى من نار الجحيم استعارها
وكورت الشمس المنيرة بالضحى
واسرع من زهر النجوم انكدارها
وسيرت الاجبال والارض بدلت
وقد عطلت من مالكيها عشارها
فإما لدار ليس يفنى نعيمها
واما لدار لايفك اسارها

فلم يجد الشاعر سوى سورة التكوير خير معينٍ لاقرار صورته الحكمية في ذهن المتلقي٠ ومما لاشك فيه ان في القرآن الكريم فلسفة انسانية تتعلق بالانسان في مختلف حالاته واوضاعه،بوصفه فرداً في أسر ة او عضواً في مجتمع ولذا فالقرآن وقف على ادق الخلجات البشرية وصورها تصويراً يكاد يشعر المستمع اليها كانه يراها ويرى مراحلها ماثلة امامه ومن ذلك افاد الشاعر في قوله(٤٣)

لك الحمدُ يارَبُ والشكرُ ثمْ
لك الحمد ما باحَ بالشكر فمْ
لك الحمد من كل ما حالةٍ
فقد خصني منك فضلٌ وعم
من الماء انشأتني نطفةٌ
ومن بعد ذلك لحمٌ ودمْ
وأسكنت في جسدي روحهُ
وأجعلتها في طباق الرحم
وأخرجتني بعدُ في عالمي
وبلغتني درجات الفهمْ
فمنك لي البصرُ المقتفي
وسمعٌ وذوقٌ ونطقٌ وشمْ

مستقياً جل افكاره من قوله تعالى﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين۞ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ۞ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظم لحماً ثم أنشأنه خلقاً أخر فتبارك الله أحسن الخلقين﴾(٤٤)

وفي موضع آخر نجدهُ يتخذ من قوله تعالى ﴿وهل جزاء الاحسان الا الاحسان﴾(٤٥) مادته لاثبات فكرته في الشكوى من الحبيب وتلك الفكرة التي جزأها الى افكار توحي للقارئ وكأنه امام عملية حسابية لقضية فلسفية يريد اثباتها يقول(٤٦)

معهود اخلاقك قسمان والدّهر فيك اليوم صنفانِ
فأنك النعمان فيما مضى وكأن النعمان يومان
يومُ نعيم فيه سعدٌ للورى ويوم بأساء وعدوان
فيوم نعماك لغيري ويو مي منك ذو بؤس وهجران
اليس حبيّ لك مستاهلاً لان تجازيه باحسانِ

هوامش المبحث الثاني

١- تاريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة):٣٢٢
٢- ينظر ابن حزم الاندلسي شاعراً (دراسة مضمونية فنية)
٣- المورد:١١٧/٣
٤- ينظر ابن حزم المفكر الظاهري الموسوعي:١٤
٥- المورد:٧٩/٢
٦- المصدر نفسه:٨٤/١
٧- ينظر فلسفة ابي العلاء مستقاة من شعره:٣٦
٨- المورد:٩٧/١
٩- ينظر مقدمة في علم الاخلاق:٩٧
١٠- المورد:١٠/٥
١١- المصدرنفسه:٩٩/٤
١٢- المصدر نفسه:١٠٠/٥
١٣- المصدر نفسه:٧١/٢

١٤- ينظر قصة الفلسفة اليونانية:١/٢٧
١٥- ينظر المختار في اصول الدين الاسلامي:٤١-٤٢
١٦- ينظر في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام:١٣
١٧- ينظر المصدر نفسه:١٣
١٨- ينظر فلسفات اسلامية:٤٠٢
١٩- ينظر قصة الفلسفة اليونانية:١٤٢
٢٠- ينظر المصدر نفسه:١٤٢
٢١- ينظر في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه:١٥
٢٢- المورد:٢/٧٤
٢٣- المصدر نفسه:٢/٧٩
٢٤- المصدر نفسه:٢/٨٠
٢٥- المصدر نفسه:٤/١٠١
٢٦- المصدر نفسه:١/٩٧
٢٧- ينظر فلسفات اسلامية:١٠٦
٢٨- ينظر المصدر نفسه:١٠٦
٢٩- قصة الفلسفة اليونانية:١٤٠
٣٠- المورد:٥/١٠٠
٣١- ينظر في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق والاسلام:١٤
٣٢- ينظر فلسفات اسلامية :٣٨٢
٣٣- ينظر المصدر نفسه:٧٤
٣٤- ينظر قصة الفلسفة اليونانية:١/٢٥
٣٥- ينظر طوق الحمامة:٩٥
٣٦- سورة الاعراف آية٨٩
٣٧- طوق الحمامة:٩٥-٩٦
٣٨- المصدر نفسه:٩٤
٣٩- المورد:٢/٨٠
٤٠- سورة الطارق:٩
٤١- سورة الاحقاف:آية٣٤
٤٢- المورد:٢/٨٠-٨١
٤٣- المصدر نفسه:٥/٩٥-٩٦
٤٤- سورة المؤمنين:آية١٢-١٤
٤٥- سورة الرحمن:آية٦٠
٤٦- المورد:٥/١٠٠

الخاتمة

بعد هذه الدراسة للاتجاه الفلسفي في اشعار ابن حزم الظاهري اود ان اتقدم بأيجاز الى اهم ما توصلنا اليه من نتائج٠

١- كان ابن حزم الظاهري ذكياً سريع الحفظ واسع الاطلاع الاطلاع متفانياً في طلب العلم أوتي مواهب خاصة به منحته القدرة على تناول مختلف العلوم واستيعابها انفرد دون غيره من مشايخ ذلك العصر حتى عَّد موسوعة علمية في مختلف المجالات ٠

٢- لقي ابن حزم الظاهري من جراء طبيعته الجدلية عنتاً كبيراً من معاصريه وقد جلبت عليه آراؤه المتميزة ونظراته الثاقبة والاخذ بالتفسير الظاهري لنصوص القرآن والسنة مهاجماً في ذلك اهل القياس واصحاب الرأي سخط الفقهاء في عصره ٠فجعلوا يجهدون في الكيد له ومن ثم حرق مؤلفاته ونفيه عن وطنه٠

٣- كان ابن حزم الظاهري مفكراً ممتازاً ثاقب النظر دائباً على البحث امتاز شعره بغلبة المعنى على اللفظ والافكار هي قوام الاشعار لديه والعقل هو الذي يلف اكثر ادبه وذلك بحكم تكوينه الفكري والعلمي٠

٤- يمثل ابن حزم الاندلسي ثورة في تاريخ الاندلس الفكري فرغم المصاعب والعقبات التي تتجلى في موقف الفقهاء ورجال الدين من الشعر الفلسفي إذ يجدونه مزلقاً من مزالق الكفر والالحاد فضلاً عن انصراف الاندلسيين عن التعقيد والتركيب والتفلسف ثبت شاعرنا ووقف صامداً ينشر آراءه ويدافع عنها فكان ظهوره سبباً في تقدم الفكر الحر خطوة للامام فقد عمد الى صياغة آرائه وتأملاته في الوجود عبر شعر طابعه وجوهره الحكمة والفلسفة٠

٥- لم يكن ابن حزم الظاهري فيلسوفاً انما تأثر باسلوب الفلاسفة والمتكلمين وأفكارهم وضمنها شعره وقد تجلت هذه الفلسفة في شعره على اتجاهين اثنين اولهما الاتجاه الظاهري والاتجاه الباطني٠

٦- كرس ابن حزم الاندلسي الاتجاه الظاهري من أشعاره لمعالجة قضايا اجتماعية ونواحٍ اخلاقية فقد ضمن اشعاره الفاظ المناطقة والمتكلمين ٠

٧- كثير ما يجنح الشاعر عبر الاتجاه الباطني –الى التلميح دون التصريح مؤثراً المعاني البعيدة وطرائق التعبير الباطنية مما جعل جانباً من شعره يتسم بالتجريد ولايسلس على القارئ العابر بيسر وهي سمة تكاد تكون فريدة في ابن حزم

الظاهري وقلما اتسم بها غيره من شعراء الاندلس .

٨- نزعته الفلسفية تنم عن عاطفة ومحبة وقيم خلقية رفيعة ظهرت عبر اقتباسه لآيات قرآنية وتضمينها شعره بما يخدم فكرته التي يريد بثها للناس.

قائمة المصادر والمراجع

١-القرآن الكريم

٢-١ابن حزم الاندلسي – حيانه وادبه،عبد الكريم خليفة،دار العروبة،بيروت٠د٠ت

٣- ابن حزم الاندلسي – شاعراً- دراسة مضمونية فنية(رسالة ماجستير)،صادق جعفر،مقدمة الى كلية الاداب – جامعة القادسية ماجستير ،اشراف هادي٢٠٠٥م

٤-ابن حزم الاندلسي،صورة اندلسية- طه الحاجري ،دار الفكر العربي،د٠ت

٥-ابن حزم الاندلسي- المفكر الظاهري الموسوعي،زكريا ابراهيم،الدار المصرية،للتأليف والترجمة،د٠ت

٦- ابن حزم ورسالته في المفاضلة بين الصحابة،حكم توفيق ابوزهرة،ط٢،القاهرة،١٩٥٦م

٧-ابن طفيل قضايا ومواقف،مدني صالح،دار الرشيد للنشر،١٩٨٠م

٨-اتجاهات شعر الغزل في عهد الطوائف (رسالة ماجستير)،انقاذ عطا الله حسن،رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب جامعة بغداد١٩٨٦

٩-الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة،احمد هيكل ،ط٣،مصر،دار المعارف١٩٦٧م

١٠- تاريخ الادب الاندلسي(عصر سيادة قرطبة)،د٠احسان عباس،ط٢، دار الثقافة بيروت،١٩٦٩م

١١- تاريخ الادب العربي الى آخر عصر ملوك الطوئف،د٠عمر فروخ،دار العلم للملايين،ط٢، ١٩٨٤م

١٢- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس ،ابو عبد الله محمد بن الفتوح دار المصرية للتأليف والترجمة١٩٦٦م٠

١٣- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة،ابن بسام :ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني،القسم الثاني منه مخطوط في دار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣٤٧ادب)،ت٥٤٢هـ

١٤-شعر ابن حزم الاندلسي- القسم الاول والثاني والثالث والرابع والخامس - جمع وتحقيق،عبد العزيز ابراهيم،مجلة المورد،الاعداد٢،١، ٤ ١٩٩٨/١٩٩٩/٢٠٠٠م٠

١٥-الشعر في ظل بني عباد،محمد مجيد السعيد،النجف،مطبعةالنعمان١٩٧٢م٠

١٦-الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس،د٠ محمد مجيد السعيد دار الرشيد للنشر ١٩٨٠م ٠

١٧- الصلة في تاريخ أئمة الاندلس،ابن بشكوال:ابو القاسم خلف عبد الملك(ت٥٧٨هـ)،القاهرة،مطابع سجل العرب١٩٦٦م٠

١٨- طوق الحمامة في الألفة والألاف ابن حزم الاندلسي،شرح صلاح الدين القاسمي ،دار الشؤون والثقافة،بغداد،١٩٨٦

١٩-الفصل في الملل والاهواء والنحل :ابو محمد علي بن حزم ،ط٢،دار المعارف للطباعة والنشر ،بيروت١٩٧٥م

٢٠- فلسفات اسلامية،الشيخ محمد جواد مغنيه،مؤسسة دار الكتاب الاسلامي،ط١، ٢٠٠٦م

٢١- فلسفة ابي العلاء مستقاة من شعره،حامد عبد القادر،القاهرة،مطبعة لجنة البيان العربي،١٩٥٠م٠

٢٢- في الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقها،محمود قاسم،ط٢،مصر ،مطبعة دار المعارف ١٩٦٧م٠

٢٣- في النفس والعقل لفلاسفة الاغريق واليونان،د٠محمد قاسم،مكتبة الانجلو المصرية،١٩٤٩م

٢٤- قصة الفلسفة اليونانية،احمد امين وزكي نجيب،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة،١٩٤٨

٢٥- المختار في اصول الدين الاسلامي،د٠قحطان الدوري،دار الرشيد للنشر،١٩٩٠م

٢٦- مختارات من الشعر الاندلسي،محمد رضوان الداية،بيروت،١٩٧٠م

٢٧-المغرب في حلى المغرب،ابن سعيد :ابو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الاندلسي(ت٦٨٥هـ)،تحقيق الدكتور شوقي ضيف ط٢،مطبعة دار الكتب بمصر١٩٦٤م٠

٢٨- مقدمة في علم الاخلاق،د٠محمود زقزوق،الدارالاسلامية للطبع والنشر بالمنصورة،ط٤، ١٩٤٨م

٢٩- ملامح الشعر الاندلسي،عمر الدقاق،مطبعة دار الشرق العربي بيروت د٠ت

٣٠- موسوعة شعراء الاندلس،عبد الحكيم الوائلي ،عمان،دار اسامة،ط٣، ٢٠٠٩م

٣١- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب،المقري:احمد بن التلمساني(ت١٠٤١هـ)،تحقيق الدكتور احسان عباس،بيروت،دار صادر١٩٦٨م٠

٣٢- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان،ابن خلكان:ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت٦٨١هـ)،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٨م